كُتب هذا النص في إطار مشروع أقامته 98Weeks في تشرين الثاني ٢٠١٢ مع مجموعة من الفنانين اللبنانيين والفلسطينيين، حيث طُلب إليهم أن يكتبوا نصوصاً تكون تعليقاً على كتاب إميل حبيبي، "المتشائل"، ثم يتبادلون قراءتها عبر السكايب، فكان هذا النص/الرسالة إلى "أبو النحس"، الشخصية الرئيسيّة في الكتاب.

المتفائم

شذا شرف الدين

أكتبُ إليكَ، يا أبا النحس، من الناقورة، تلك البلدةِ الصغيرة التي تبعدُ كيلومتراتٍ قليلة عن مسقطِ رأسي، صور، ورأسِك، عكّا. وأنا كنتُ قد زُرتُها للمرةِ الأولى في ٨٢، غَداةَ الاحتلال الإسرائيليّ للبلاد. كنتُ آنذاكَ في الثامنة عشرةَ وكان ذلك قُبَيْلَ مجزرةِ صبرا وشاتيلا. ذهبتُ إليها بسيارةِ المؤسّسةِ الأميركيّةِ التي عملتُ فيها خلالَ الاجتياح من دونِ إجازةِ قيادة وبرفقةِ أبناءِ أعمامي الثلاثةْ. هناك أكلنا السمكَ وشربنا العرقَ وضحكنا كثيراً. كنا نتكلّم عما سنفعلُهُ حينَ تهدأُ الأحوالُ وقرّرنا أن نفتحَ سوياً مسمكةً في الناقورة نسمّيها «مسمكة النبي موسى»، وبذلكَ نكونُ قد ضربنا عصفورين بحجرٍ واحد، والعصفوران هما الإسرائيليّون والوطنيّون. فالأوَّلونَ سيظنونَ بأنَّنا نكرّمُ نبيَّهم والأخيرون سيظنون بأنّنا كتبنا الاسم بالسين لا بالشين، كما يلفُظُه العدوُ، نكايةً به.

لكنْ ما إن هدأَتِ الأحوالُ حتى تفرّقنا وذهب كلٌّ في طريقه. فابنُ عمّي الأقصرَ قامةً في العائلة، هاجرَ إلى أميركا وتزوّجَ مِن شبيهة مارلين مونرو كما فتحَ صالةَ سينما وجنى من المال الكثيرَ ولم نعدْ نسمعُ عنه شيئاً. وابنُ عمّي، الأكبر سناً بيننا، توقّف عن شربِ العرق وصار يلطُم صدره بيده، التي من المفترض أن يمدها لمصافحتي أو معانقتي. أي أنه أصبح من أولئك الذين يغضّون أبصارَهم عمّا قد يفقأُ منظرهُ أعيُنَهُم. ومنظري كان مما يفقأُ العين، برأيِه.

أما ابنُ عمّتي الذي في سني تماماً فحاولَ أن يصيرَ شاعراً لكنَّه لمْ يُوفَّق فقرّرَ الرحيلَ إلى النجفِ ليصيرَ عالماً. ومن هناك كتبَ لي ذات يوم: ... في الواقع لا أدري ما الذي أتى بي إلى هنا، فأنا ضجرانٌ جدّاً ومشتاقٌ كثيراً إلى جلساتِنا الأنيسة...
وعجِبتُ لاستعمالِه كلمة «أنيسة» التي بدت لي فصيحةً بما لا يلائمُ جلساتِنا في العادة، لكنني تعجّبتُ أكثرَ حين قرأتُ ما تلا العبارة، أي حين سألَني رأيي في أن نتزوّجَ ونفتحَ مسمكةَ «النبي موسى» في الناقورة سوياً وننجبَ أولاداً ونعيشَ هناك إلى الأبد.
تأكّدتُ يومَها أن ابنَ عمّتي، المضطربَ أصلاً، اضطربَ أكثر. فكتبتُ له أن زواجَنا يُعتبرُ سُفاحَ قُربى، وهو نوع من النِكاح غيرِ المحبّذ علمياً، ثمّ إنني عَدَلتُ عن فكرةِ المسمكة وقرّرتُ الهجرةَ إلى حيثُ يعطونَني فيزا.

بعد هذه الرسالةِ بفترةٍ، علمتُ أن ابنَ عمّتي الشيخَ - الشاعرَ- المُحبطَ صار بين أهلِنا في ديرِ الصليب. وأقولُ «أهلَنا» لأن الكثير من أقارِبِنا يقضونَ فترةً لا بأس بها هناك، قبل أن يناديهم الباري إليه.

ولعلّ من المفيدِ أن أُخبرَكَ عن أصلِ عائلتي، التي تُشبهُ عائلتَكَ إلى حدّ ما. فهي لُقِّبت بـ«المُتفائم» وذلك منذ أكثرِ من خمسةَ عشرَ جيلاً. والمُتفائم تَطغى عليه صفةُ المتشائم في ما يخصُّ المصائرَ، بعكسِ المتشائل الذي تطغى عليه صفةُ التفاؤل بها. فأفرادُ عائلتِكَ يبحثونَ «تحت أقدامهم عن مالٍ سقطَ سهواً من صرَّةِ عابرِ سبيلٍ»، وهذا لفَرطِ تفاؤلِهِم بالحياةِ الدنيا. أما عائلتي، ولفَرطِ تشاؤمِها بأحوالِ الدنيا وتفاؤلِها بما تَعِدُ به السماء، فإن أفرادَها لا ينظرونَ إلى ما انخفضَ عن أُفُقِ نَظَرِهِم، بل غالباً ما يرفَعونَهُ نحوَ السماءِ علّهم يلمحونَه أخيراً، أيّْ الرحمنْ، مشيراً إليهم بإصبَعِهِ كيْ يتبعوه إلى حيثُ هو. وإنما شاعِرُكم الجليلُ لم يفعلْ سوى قلبِ جملةٍ أثيرةٍ منسوبةٍ لأحدِ أجدادي الذي كان يعملُ شاعراً في فلسطين ويُرَدِدُها دون كللٍ، وهي: ليسَ على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

ويُقال بأن أبَ جَدّي لأبي راحَ ينظرُ ذاتَ ليلةٍ إلى السماءِ وهو يصلّي لمدةِ شهرٍ بأكمَلِه فيما كانت يداهُ مفتوحتين. وقد بقيَ على حالِه إلى أن تلونَتّ عيناهُ بلونِ زرقةِ السماءِ وصارتْ كفاهُ بيضاوينِ واتخذَتا شكلَ الغيوم.
ثم راحَ يوماً بعدَ يومٍ يصغر أكثر فأكثر إلى أن صارَ بحجمِ حبةِ الرملِ ولم يعد يشعرُ به أحدُ ما عدا زوجتَه التي شوهِدَت ذات يومٍ، وكان ذلكَ بعد سبعةِ أيامٍ على وفاتِها، تحومُ حول منازلِ بناتِها وتوصي كلّاً منهنّ ألا تنسى الصلاةَ أيّامَ العيدِ على حبّةِ الرملِ، أيْ أبيهم، التي وضعتها قبل مماتِها في صُندوقٍ تحت إحدى بلاطاتِ المطبخ.

وبعكسِ عائلتِكَ التي كانت تجدُ من حينٍ إلى آخر أموالاً ضائعة، فالتي أنحدرُ منها لم تجدْ شيئاً حتى اليومَ في زرقةِ السماءِ أو بياضِها. وثِقْ يا صديقي بأن ما من عجوزٍ في البلدة تراه يمشي وكأن جسمَه الأسفلَ منفصلٌ عن الأعلى، وتقويسةَ ظهرِهِ تشبه الـ ٧ إلا وتجمَعُهُ صلةُ قربى بنا. حتى الآن، وفيما أنا أكتبُ لك هذه الرسالة، تراني أنظُرُ إلى سقف الغرفة بدلَ النظرِ إلى الورقة أمامي. لذلك أنت ترى خطي

ينحدر

شيئاً

فشيئاً...

إنها عادةٌ

كمرضٍ وراثيٍّ

لا مفرَّ منه...

وهناك تشابهٌ آخر بين عائلتي وعائلتِك، وذلك في ما خصَّ مصيرَ أخيك الذي اقتلعتْهُ العاصفة هو «ووِنشُه»، لتجدوه ممدّداً من دون رأس على شاطئ حيفا. فابنُ عمّي الشيوعي وجدناه أيضاً ذات يوم ممدّداً من دون يديَن على شاطئ صور، بعد أن انفجرت فيه العبوة الناسفة التي كان يحضرُها لاغتيال أحدِ عملاء العدو.

ومن أسرارِ العائلة أنَّ ما من امرأة فيها إلا لديها شامةٌ تحت صرّتِها (ونحن أيضاً مثلَ الماسون، لا يمكن أن نفشي أسرارَنا العائليّة، لكننا نقومُ أحياناً باستثناءات). ويقال إن الجدّة الأولى التي وُلدت مع هذه الشامة كانت كلّما كبست بإصبعها عليها، تَخرُجُ حبّةَ حمّصٍ مُن فمها. وبإمكانك أن تتخيّل يا مُّحترم، مشهدَ السرير الزوجيّ حين يضغطُ رجُلُها على صرَّتِها بهدف الإنجاب. فكان كل طفلٍ يولدُ في العائلة ورزقُه من الحمص معَهُ. ليس هذا فقط، بل يُقال أيضاً إن عائلتَنا نجت هكذا من المجاعة خلال الحرب العالميّة الأولى.
لكن بعكس أبيك، كان جدّي، رحِمَهُ الله، يقولُ لنا ألاّ نشكَّ بأحد وأن نثقَ بكلّ بني آدم حتى لو ألحقَ بنا أذى. فبرأي جَدّي، الإنسان يخطئُ، فهو ليس بإله!
ما رأيُكَ بهذه الحكمة؟ أعرف أنها بديهيّةٌ لدرجة أن لا حكمةَ فيها، لكن بالنسبة لنا، نحن المتفائمين، فجملةٌ كتلك تثيرُ فينا كمّاً هائلاً من المشاعر العميقة، فنشرَعُ نستذكرُ حَشْرُ فاطمةَ خلفَ الباب واستشهادَ أبي الفضل العبّاس ومقتلَ الحُسينِ غدراً، ونروح نُنشِدُ جاهشين بالبكاء:

يا نفسُ مِن بعدِ الحُسينِ هُونِي   وبـعدَهُ لا كُـنتِ أنْ تَكوني
هَـذا حُـسينٌ واردُ الـمَنونِ   وتَـشـرَبينَ بـارِدَ الـمَعينِ
تاللهِ مـا هَـذا فِعالُ دِيـنِي   ولا فِـعَالُ صَـادِقِ الـيَقينِ

إلى أن نغفو.

نحن هكذا، لا نراهن على أحد ونثقُ بكلِّ الناس. «فأيهُمُّ نحنُ متشائمونَ أم متفائلون؟».

لنعُد إلى الناقورة التي رجعتُ إليها بعد ثلاثينَ عاماً لأجدَ على مدخلها «آرمةً» كُتب عليها «موسى ترافيل» (travel). تذكّرتُ أبناء عمّي ودرتُ أبحث عن المسمكة إياها. وجدتُ واحدةً أسماها صاحبُها: «شي سامي»، ربمّا ليُفهم اليونيفيل بأنه يتكلّم الفرنسيّة وأنه، بالتالي، يقدّم الكحول. أظنّها هي. لم أدخلْها، لكنها بقيت على حالِها منذ ذلك الحين.

إنه تشرين الثاني ٢٠١٢، ناقورةُ البائسة، على يميني البحرُ الذي ابتلعَ «باقية» و«ولاء»، وعلى يساري المرتفعاتُ الخضراء التي ابتلعتْها أعلامٌ خضرٌ وصفر. من أمامي عكّا ومن ورائي صور التي «تدْعي عليها» عمّتي فتقول: الله ياخدها هي وأهلْها! وحين أسألُها إلى أين ياخدها، تقول: والله يا عمّتي «هناك أسوأَ منهم» بكثير. من «هم» يا عمّتي؟ اليهود! أولاد الكلب، فليأتوا وينظفوا لنا الطرقات. شوفي بلادهم ما أنضفها. بس شاطرين ينضفوا بلادهم ويكبّوا علينا صواريخ. الله يهدّك يا إسرائيل، هدّتنا وعمّرت فلسطين. الله يهدّك يا فلسطين، جبتيلي مرض السكّري...

كما ترى، عمّتي تهذي أحياناً. ألم أقل لك بأنّنا مثلَكم، ننتهي في المصحّات العقليّة؟

٤ تشرين الثاني ٢٠١٢